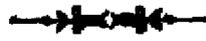


الرافعي العاشق

الحب عند الرافعي . هو وهي . شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء . هي وهو .
تعطيب . رسائل الأحران . السحاب الأحمر . أوراق الورد .

- ١ - إن المرأة للشاعر كواء الآدم . هي وحدها تعطيه بمحبها جديداً لم يكن فيه ؛ وكل
عمرها أنها تتخطى به السماوات فآزلاً ...
- ٢ - إن النابغة في الأدب لا يتم تمامه إلا إذا أحب وعشق ...
- ٣ - ... إن ملكة الفلسفة في الشاعر من ملكة الحب ؛ وإنما أولها وأصلها دخول المرأة
في عالم الكلام بإبهامها وثرثرتها ...
(الرافعي)



أتراني أستطيع الحديث عن الرافعي العاشق فاو في القول وأبلغ الغاية ... ؟
وهل يكون لي أن أدعي أنني أكتب في هذه الصفحات تاريخ الرافعي إذا أنا
لم أعرض لحديث الرافعي العاشق ... ؟

وهل خلت فترة في حياة الرافعي من الحب ؟
ذلك الرجل الذي لا يتخيله أكثر من لم يره إلا شيخاً معتجراً العمامة مطلق
العذبة مسترسل اللحية مما قرءوا له من بحوث في الدين وآراء في التصوف وحرص
على تراث السلف وفطنة في فهم القرآن مما لا يدركه إلا الشيوخ ، بل مما
لا يدركه الشيوخ ...

هذا الذي يكتب إعجاز القرآن ، وأسرار الإعجاز ، والبلاغة النبوية ، ويصف
عصر النبوة ومجالس الأئمة وكأنه يعيش في زمانهم وينقل من حديثهم ...
هذا الذي كانت تصل روحه فيما يكتب - من وراء القرون - بروح
الغزالي ، والحسن البصري ، وسعيد ابن السائب ؛ فما تشك في أن كلامه من
كلامهم وحديثه من إلهام أنفسهم ..

هذا الذى تقرأ له فتحسبه رجلاً من التاريخ قد فر من ماضيه البعيد وطوى
الزمان القهقرى ليميش فى هذا العصر ويصل حياة جديدة بحياة كان يحياها منذ
ألف سنة أو يزيد فى عصر بعيد ...

... هذا الرجل ، كان عاشقا غلبه الحب على نفسه وما غلبه على دينه وخلقه ..!
إن الحديث عن حب الرافى لحديث طويل ؛ فما هى حادثة أروىها وأفرغ منها ،
وحبيبةٌ واحدة أصفها وأحدث عنها ؛ ولكنها حوادث وحبيبات ، وعمر طويل
بين العشرين والسابعة والخمسين ، لم يشرق فيه صباح ولم يخب مساء إلا وللرافى
جديدٌ فى الحب ؛ بين غضب ورضا ، ووصل وهجر ، وسلام خصام ، وعتب ودلال ،
وحبيب إلى وداع وحبيب إلى لقاء ... وشاب الرافى وما شاب قلبه ، وظل
وهو يدب إلى الستين كأنه شابٌ فى العشرين ... ومات وعلى مكتبه رسالة ودادٍ
من صديقة بينها وبينه جواز سفر وبأخرة وقطار ، وكان فى الرسالة موعد إلى لقاء ..!

قلت مرة للأستاذ الزيات صاحب (الرسالة) وبين الرافى وأجله عام : هل
لك فى موضوع طريف عن الرافى أنشره لقراء الرسالة ؟ إن للرافى فى الحب
لحديثاً يلذ ويفيد ...

قال : ومن لى بهذا ؟

قلت : أنا لك .

قال : ولكنه حديث يُغضب الرافى !

قلت : وعلى أنا أن يرضى ...

وذهبت إلى الرافى فأفضيت إليه بعزى . قال : أو تفعلها ؟ أفكان لهذا

مجلسك منى كل مساء تسترق السر لتدخره إلى يوم تنشره فيه على الناس بشمن ..؟

قلت : لو أنه كان سرّاً لم يعلمه غيرى ما عقدت العزم على شيء ، ولكنك

ياسيدى ...

وما كان للرافى سر يستطيع أن يطويه بين جوانحه يوماً وبمضى يوم ، فكانما

أذكرته ما كان ناسياً؛ فعاد يقول: وماذا تريد أن تقول في حديثك عن حبي؟
قلت: حديثاً لو هم غيري أن يجعل منه مقالاً لقراءته لما كان الراقى هو الراقى
عند من يقرؤه، ولكن أحسبني أنا وحدي الذي يستطيع أن يقول إن الراقى
كان يجب فما يغير شيئاً من صورة الراقى كما هو في نفسه وكما هو عند من يعرفه.
إنني أنا وحدي الذي يعرف الحادثة وجوهرها وملابساتها وما كان في نفسك منها؛
ولعلني يوم عرفتُ كنتُ أسمع نبضات قلبك وخلجات وجدانك ومصرى أملك
وما كانت غايتك في الحب ومدالك. أما غيري فهل تراه يعرف إلا الحادثة؟ وحسبه
أن يقول: إن الراقى يجب... ثم تكون الفضيحة التي تخشاها وأنت منها
طاهر الإزار...

واستمع الراقى إلى حديثي ثم أطرق هنيئة وعاد يسألني: وهل أقرأ ما تُعده
قبل أن تنشره.

قلت: لك ما تريد.

قال: أنت وشأنك!

وأجمت أمرى، وأعددت فكري، وتهيأت للكتابة، ثم شغلتنى العناية
بطبع (وحي القلم) وتصحيح تجاربه عن الوفاء بما وعدت... ومات الراقى!
فإن يكن في الحديث عن (الراقى العاشق) حرج فلا على؛ فقد استأذنته
فأذن، وما أكتب الآن إلا مستمداً من روحه، راوياً من بيانه؛ ولدى شهودي
من كتبه ورسائله، وما يعرفه أصدقائه وصفوته. وإذا كان الراقى قد خفت صوته
إلى الأبد فلا سبيل إلى أن أسمع رأيه فيما أكتب عن تاريخ قلبه، فإنني لمؤمن شديد
الإيمان بأنني ما أزال في رضاه ومنزلتي عنده وإن كان بيننا هذا البرزخ الذي
لا أعرف متى أجتازه إليه فأسمع من حديثه ويسمع من حديثي!

الحب عند الراجعي

وهل في الحب عار أو مذمة ؟

هذا سؤال يجب أن يكون جوابه إلى جانبه قبل أن أمضى في هذا الحديث ...
أما الحب الذي أعنيه - وكان يعنيه الراجعي - فشيء غير الحب الذي يدل
عليه مدلول هذه الكلمة عند أبناء هذا الجيل ...

إن الحب عند الناس هو حيلة الحياة لايجاد النوع ، ولكنه عند الراجعي هو حيلة
النفس إلى السموات والإشراق والوصول إلى الشاطئ المجهول ، هو نافذة تطل منها
البشرية إلى غاياتها العليا ، وأهدافها البعيدة ، وآمالها في الإنسانية السامية ؛ هو
مفتاح الروح إلى عالم غير منظور تتنور فيه الأفق المنير في جانب من النفس الإنسانية ،
هو نبوة على قدر أنبيائها : فيها الوحي والإلهام ، وفيها الإسراء إلى الملائكة الأعلى على
جناحي ملك جميل ... هو مادة الشعر وجلاء الخاطر وصقال النفس وينبوع الرحمة
وأداة البيان .

كذلك كان الحب عند الراجعي ، ولذلك كان يجب ... وسعى إلى الحب أول
ما سعى على رجليه ، منطلقاً بإرادته لبحث في الحب عن ينبوع الشعر ، فلما بلغ
أغلق الباب من دونه فظل يرسف في أغلاله سنين لا يستطيع الفكك من أسر الحب
أ وكانت (عصفورة) أول من فتح لها قلبه فسيطرت عليه وغلبته على نفسه ، وهي
فتاة من (كفر الزيات) لقيها ذات يوم على الجسر ، وسنه يومئذ إحدى وعشرون سنة ؛
فهنا إليها قلبه ، ومحرك لها خاطره . وكان للراجعي في صدر شبابه على (جسر
كفر الزيات) منقدي ومصراحي ، ومن عيون الملاح على هذا الجسر تفتحت زهرة
شبابه للحب ، وجاشت نفسه بمعاني الشعر .

ومن وحي هذا الحب كان أكثر قصائد الراجعي الغزلية في الجزء الأول من
الديوان ، ومنه كان ولوعه في صدر أيامه بلقب شاعر الحسن !

وبلغ الراقى بعصفورة إلى غايته ، واشتهر (شاعرُ الحسن) وترنم المشاقُ بشعره وما بلغت عصفورة إلى غايتها . ثم مضى كل منهما إلى طريق ، وأتم الراقى طبع ديوانه . . . وكما ينتهى الحب الذى هو حيلة الحياة لإيجاد النوع إلى الزواج أو إلى الغاية الأخرى ثم يبدأ فى تاريخ جديد - كذلك انتهى حب الراقى وعصفورة وأتجب ثمرة الشعرية فى الجزء الأول من الديوان ، ثم كان تاريخ جديد . . .

وعلى مثال هذا الحب كم كانت له حبيبات وكم أنجب من ثمرات ؛ وإنه ليخيل إلى أن الراقى كان كلما أحس حاجة إلى الحب راح يفتش عن (واحدة) يقول لها : تعالى نتحاب لأن فى نفسى شعراً أريد أن أنظمه ، أو رسالة فى الحب أريد أن أكتبها . . . ! ولقد سمعته مرة يقولها لإحداهن . . . وسمعت إحداهن مرة تقول له : متى أرانى فى مجلسك مرة لتكتب عنى رسالة فى « ورقة ورد » ؟

على أن الراقى كان له إحساس عجيب فى مجالس النساء ، وكان لمن عليه سلطان وله سحر وفتنة . وهو فى هذه المجالس فكهم مداعب زائق النكتة لا تملك السيدة الرزان فى مجلسه إلا أن تخرج عن وقارها ؛ وكانت هذه أداته فى استمالتها حين يلتبس الوحى أو يجد الحاجة إلى أن يقرأ شعراً فى عين ساحرة ، فإذا استوى له ما أراد عاد إلى مكتبه لينشى وينظم وتنتهى قصة حب

أ وكان يسمى كل جميلة (شاعرة) لأنها تمنحه الشعر ، و (الشواعر) عنده طبقات ، على مقدار ما يبعث فيه من الشاعرية ويرهفن من إحساسه ؛ ففلانة شاعرة كالمتنبى ، وهذه كالبحتري ، وتلك بنت الرومى ، ورابعة بشار بن برد ، وخامسة عبد الله عفيفى أو شاعر الرعاع .

[و حين يجلس فى الشرفة من قهوة (لنوس) بطنطا وتمر به الجميلات فى رياضتهن أو فى حاجتهن ، تسمع ثباتاً حافلاً بأسماء الشعراء يبدأ من مهلهل بن ربيعة وينتهى بفلان الذى يؤمل أن يكون أمير الشعراء بعد أن يموت كل الشعراء . . . !]
هذه لمحات أذكرها على غير صلتها بالموضوع لأنها تشير إلى بعض عناصره ؛

على أنني وقد بلغت هذا القدر من الحديث لم أبدأ القول بعدُ عن حب الرافعي الذي أنشأت هذا الفصل للحديث عنه .

إنها حادثة وقعت في تاريخ الرافعي وسنه ثلاث وأربعمون سنة فأنشأته خلقاً جديداً ، كانت دعاية من مثل ما قدّمت فأوشكت أن تكون علة ، فلما اختار الله له أنقذه بكبريائه من دائه ، ولكنه خلف في قلبه جرحاً يدعى ، ولكنها كانت بركة في الأدب وثروة في العربية .

من تكون هذه الشاعرة التي غلبته على إرادته فغلبها بكبريائه ؟ ما شأنها وما خبرها ؟



هو وهي ... ؟ !

— « لقد وضعت حسنك في طريق موضع البدر : يرى ويحب ولا تناله يد ولا تعلق بنوره ظلمة نفس ، لكن كبرياءك نصبتك نصبة الجبل الشامخ : كأنه ما خلق ذلك الخلق المتر الوعر إلا لتصدق به قلوب المصمدين فيه ... كوني من شئت أو ما شئت ، خلقاً مما يكبر في صدرك أو مما يكبر في صدري ؛ كوني ثلاثاً من النساء كما قلت أو ثلاثة من الملائكة ، ولكن لا تكوني ثلاثة آلام . انفضي نفع العطر الذي يمس بالروح ، واظهرى مظهر الضوء الذي يمس بالعين ، ولكن دعيني في جوك وفي نورك . اصعدى إلى سمائك العالية ، ولكن ألبسني قبل ذلك جناحين . كوني ما أردت نفسك ، ولكن أشعري نفسك هذه أنى إنسان ... ! »
(هو)

— « إن أمي ولدت نفسي ونفسي هي ولدتني ، فلا ترج أن تصيب في طبع أئني وإلا ضل ضالك أيها الحبيب ... »
(هي)



« رجل وامرأة كأنما كانا ذرتين متجاورتين في طينة الخلق الأزلية وخرجتا من يد الله معاً ؛ هي بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته ... »
« كانا في الحب جزءين من تاريخ واحد ، نشر منه ما نشر وطوى منه ما طواه ؛ على أنها كانت له فيما أرى كملك الوحي للأنبياء ، ورأى في وجهها من النور والصفاء ما جعلها بين عينيه وبين فك المعاني السامية كمرآة المرصد السماوي ؛ فكل ما في رسائله من البيان والإشراق هو نفسها ، وكل ما فيها من ظلمات الحزن هو نفسه (١) »

ألم تكن (هي) أولى حياته ولكنها آخر من أحب ؛ عرفها وقد تخطى الشباب وخلف وراءه أربعين سنة ونيفاً حافلة بأيام الهناءة ، مشرقة بذكريات

الهوى والصبابة والأحلام ، وكان بينهما في السنُ عمرُ غلامٍ يخطو إلى الشباب ...
سعى إلى مجلسها يوم (الثلاثاء) سعى الخلى إلى اللهو والنزل ، يلتمس في مجلسها
مادة الشعر ، وجلاء الخاطر ، وصقال النفس ؛ ومجلسها في كل (ثلاثاء) هو ندوة
الأدب وجمع الشعراء ؛ وجلس إليها ساعة ، وتحدث إليه ، وكان كل شيء منها
ومما حولها يتحدث في نفسه . ولسه الحبُّ لسة ساحر جعلت في لسانه حديثاً
ولميينه حديثاً . وطال انفرادها به عن ضيوفها ؛ فما تركته إلا لتعتذر إليهم فتعود
إليه ... وقامت تودعه إلى الباب وهي تقول : « متى تكون الزيارة الثانية ؟ » .
فغى النفس عن الهوى ونسأ الأجل إلى غد ... !

ووقع من نفسها كما وقعت من نفسه ، فما افترقا من بعدها إلا على ميعاد ؛
ومحت صورتها من ماضيه كل ما كان في أيامه وكل من عرف ، لتلاهي نفسه
بروعتها ودلالها وسحرها ؛ وانزعها هو من أيامها فما بقي لها من أصحابها وصواحبها
غير مُصَيِّفٍ^(١) مشغلة في الليل والنهار .

وكان الراضى أول من يفشى مجلسها يوم الثلاثاء وآخر من ينصرف ، فإن منعه
شيء عن شهود مجلسها في القاهرة كتب إليها من طنطا وكتبت إليه ، على أن
يكون له عوض مما فاته يومٌ وحده ...

أكان يحبها حباً عتيقاً جارفاً لا يقف في سبيله شيء ، ولكنه حب ليس من
حب الناس ، حب فوق الشهوات / فوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية .
لقد كان يلتمس مثل هذا الحب من زمان ليجد فيه ينبوع الشعر وصفاء الروح ،
وقد وجدها ، ولكن في نفسه لا في لسانه وقلبه ، وأحس وشعر وتوالت نفسه
الآفاق المبيدة ، ولكن ليثور بكل ذلك دمه ، وتصطرع عواطفه ولا يجد البيان
الذي يصف نفسه ويبين عن خواطراه ...

(١) يزعم الراضى أن (مصيف) هو تصغير (مصطفى) على قاعدة الترخيم . وصوابه صلي
(بضم ففتح فتصنيف) والراضى على علمه بخطأ هذا التصغير كان حريصاً على استعماله لأنها هي
وضيئة وكانت تتجيب به إليه ... فلا كان سيويه وأبو علي وابن حبان إن رضيت هي 1

بلى . قد كتب ونظم وكان من إلهام الحب شعره وبيانه ، ولكنه منذ ذاق الحب أيقن أنه عاجز عن أن يقول في الحب شعراً وكتابه ، ومات وهو يدندن بقصيدة لم ينظمها ولم يسمع منها أحد بيتاً ، لأن لغة البشر أضيق من أن تتسع لمعانيها أو تعبر عنها ، لأنها من خفقات القلب وهمسات الوجدان .

و (هى) أديبة فيلسوفة شاعرة ؛ فمن ذلك كان حبها وكان حبه « من خصائصها أنها لا تعجب بشيء إعجابها بدقة التعبير الشعري ... إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها ، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة ، وهذا هو الحب عندها ... »

« ... ولا يستخرج عجبها شيء كما يعجبها الكلام الفطن المشرق المضيء بروح الشعر ؛ فهو حلاها وجواهرها ؛ وما لسوق حبها من دنائير غير المعاني الذهبية ؛ فإنها لا تبايعك صفقة يد بيد ، ولكن خفقة قلب على قلب »^(١)

وكذلك تحاببا ؛ وتراءيا قلباً لقلب ، وتكاشفا نفساً لنفس ، ومضى الحب على سنته . ونظر الرافعي إليها وإلى نفسه وراح يحلم ، وخيل إليه أنه يمكن أن يكون أسعد مما هو لو أنها ... لو أنها كانت زوجته ... ثم عاد إلى نفسه يؤامرها فأطرق من حياء ... وكانت خطرة عابرة من خطرات الهوى أطافت به لحظة وما عادت . وقالت له نفسه وقال لنفسه ، فكأنما انكشفت له أشياء لم يكن يراها من قبل بعيني العاشق ، وأوشكت القصة أن تبلغ نهايتها وتنحل العقدة ، فجاءت كبرياؤه لتخط الخاتمة ...

وراح الرافعي يوماً إلى ميعاده ، وكان في مجلسها شاعر جلس إلى تحفته ومحدثها ؛ ودخل الرافعي فوقفت له حتى جلس ، ثم عادت إلى شاعرها لتم حديثاً بدأته ، وجلس الرافعي مسترياً ينظر ؛ وأبطأت به الوحدة ، وثقل عليه أن تكون لغيره أحوج ما يكون إليها ، ونظر إلى نفسه وإلى صاحبه ، وقالت له نفسه :

« ما أنت هنا وهي لا توليك من عنايتها بعض ما تولى الضيف ... ؟ » فاحر وجهه
وغلى دمه ، ورمى إليها نظرة أو نظرتين ، ثم وقف واتخذ طريقه إلى الباب ...
واستهملته فما تلبث ، وكتب إليها كتاب القطيعة ... !

وعاد إليه البريد برسالتها تعتذر وتعتب وتجدد الحب في أسطر ثلاثة ، ولكن
الرافعي حين وجد كبرياءه نسي حبه ، وكان هو الفراق الأخير ... !

كان ذلك في سنة ١٩٢٣

وثابت إليه نفسه رويداً رويداً ، وخلا إلى خواطره وأشجانه ليكتب رسائل
الأحزان !

ومضت ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة ، لم يلتقيا وجهاً لوجه ،
إلا مرة ، في حفل أدبي في طنطا ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها ، ثم فر أحدهما
من الميدان وخلف الآخر ينتظر ...

على أن الرافعي لم ينس صاحبه قط ، وعاش ما عاش بعد ذلك وما تبرح خاطره
لحظة ، وما يأنس إلى صديق حتى يتحدث إليه فيما كان بينه وبين (فلانة) ، ثم
يطرق هنيهة ليرفع رأسه بعدها وهو يقول : « هل يعود ذلك الماضي ؟ إنها حماقتي
وكبريائي ، ليتني لم أفعل ، ليت ... ! » . ثم ينصرف عن محدثه إلى ذكرياته ،
ويطول الصمت ...

وكان لا ينفك يسأل عنها من يعرف خبرها ، حتى عرف أنها سافرت إلى
الشام تستشفى منذ عام فأقامت هناك ، فهفت إليها نفسه وتحركت عاطفته إليها
في لون من الحب وغير قليل من الندم ؛ فكتب إلى صديقة في (دمشق) لتزورها
في مستشفاهها وتكتب إليه بخبرها ؛ فكتبت إليه (١) :

« ... بالصدق يا صديقي أنني كلما استعدت بذاكرتي وصية (فلانة)
المؤلمة ونتيجتها المحزنة ، اعترفتني حالة انقباض شديد وحزن لا حد له ... إن الموت

(١) جاءه هذا الكتاب قبل موته بيضعة وعشرين يوماً ، وأحسبه آخر ما جاءه من
أبناء صاحبه !

في مثل هذه الحالات يعد كترًا ثمينًا لا يحصل عليه إلا السعيد . وإني أتهمك قانونًا ... بأنك كنت السبب فيما نابها ، فماذا عليك لو لبيت الدعوة ؟ آه ، لقد كنت قاسياً وفي منتهى القسوة ، فهل كان يحلو لك تعذيبها بهذا الشكل ، وإلا فماذا تقصد من هذه القطيعة ؟ إن المرأة على حق حين تظن ، لا ، بل حين تعتقد أن الرجل ... لا ، السكوت أولى الآن ... »

أما هذه (الوصية) التي أوصت بها (فلانة) زائرَها لتبلغها إلى الرافي ، فلست أعرف ما هي ؛ فقد قصّ الرافي هذا الجزء من الخطاب قبل أن يصل إليّ ، ولست أعرف أين خبأه من مكتبه ، ولعل ولده الدكتور محمد يدري ، فإن كان ، فإن عليه حقاً للأدب أن يحتفظ بما عنده من الرسائل إلى أوانها ، فسيأتي يوم تكون فيه هذه الرسائل شيئاً له قيمته في البحث الأدبي .

قلت : إن الرافي قطع ما بينه وبين صاحبه منذ ثلاث عشرة سنة لم يلتقيا إلا مرة ، ولكنه كان يكتب لها وتكتب له رسائل لا يحملها ساعي البريد ، لأنه كان ينشرها وتنشرها في ثنايا ما تنشر لها الصحف من رسائل أدبية ، يقرأها قراؤها فلا يجدونها إلا كلاماً من الكلام في موضعها من الحديث أو المقالة أو القصة ، ويقرأها المرسل إليه خاصة فيفهم ما تعنيه وما تشير إليه ، ثم يكون الرد كذلك : حشواً من فضول القول في حديث أو مقالة أو قصة . هي رسائل خاصة ولكنها على أعين القراء جميعاً وما ذاع السر ولا انكشف الضمير ، وفي أكثر من مرة والرافي يملئ على مقالاته — كان يستعملني قليلاً ليُعيّث في درج مكتبه قليلاً فيخرج ورقة أو قصاصة يملئ على منها كلاماً ، ثم يعود إلى إملائه من فكره ، وأعرف ما يعنيه فأبتسم ويتسم ، ثم تعود إلى ما كنا فيه ؛ وتنشر المقالة ، فلانلبث أن نجد الرد في رسالة تكتبها (فلانة) فيتلقاها الرافي في صحيفتها كما يقض العاشق رسالة جاءت في غلافها مع ساعي البريد من حبيب ناء ...

هي طريقة لم يتفاهما عليها ولكنهما رضاياها ، وأحسب ذلك نوعاً من الكبرياء

التي ربطتهما قلباً إلى قلب ، والتي فرقت بينهما على وقدة الحب وحرقة الوجد والحنين !

وكنت مع الراجعي مرة بالقاهرة في شتاء سنة ١٩٣٥ ، فقال لي : « ميل بنا إلى هذا الشارع ! » ، ولم تكن لنا في ذلك الشارع حاجة ولكنني أطمته ، واتهبنا إلى مكان ، فوقف الراجعي معتمداً على عصاه ، ورفع رأسه إلى فوق وهو يقول : « إنها هنا ، هذه دارها ، من يدري ، لعلها الآن خلف هذه النافذة ... ! »

قلت : « من ؟ » قال : « فلانة ! »

قلت : « ولكن النوافذ مغلقة جميعاً ولا بصيص من نور ، فأين تكون ؟ » قال : « لعلها الآن في السبيل . إذا كان الصباح فاعُدْ على مبكراً لزورها معاً ، إن بي حنيناً إلى الماضي ... ليتنى ... ولكن أترى من اللاتق أن أزورها بعد كل ما كان ؟ »

قلت : « وما يمنع ؟ أحسبها ستسرق كثيراً بقلبك ... ! »

قال : « إذن في الصباح ، ستكون معي ، ولكن احذر ، احذر أن تقلبك على قلبك ... أو أن تسمح لخيالك أن يسبح وراء عينيك ... إنها فاتنة ! » قلت : « لا ، إنها عجوز ، فما حاجتي بها .. ؟ » وضحكت مازحاً .

فزوى ما بين عينيه وهو يقول : « وى ! عجوز ! إنها أوفر شباباً منك ! » قلت : « قد يكون ذلك لو أن السن قد وقفت بها منذ اثنتي عشرة سنة .. ! » قال : « صدقت ... ! اثنتي عشرة سنة ... ! »

وسكت وسكت حتى أوصلته إلى الدار ، فلما كان الصباح غدوتُ عليه فأذكرته مواعده ، فابتسم ابتسامة هادئة وهو يقول : « يا بني ، إنها ليست هناك ، إن (تلك) قد ذهبت منذ اثنتي عشرة سنة ، أما (هذه) فأظنني لا أعرفها ... إنني أحرص على الماضي الجميل أن تتغير صورته في نفسي ... بحسبي أنها في نفسي .. ! » ثم لم يلبث بعد ذلك أن جاءه النبا أنها سافرت إلى الشام لعله في أعصابها ... !

شعر وفلسفة ، وحب وكبرياء

١ — « إن في الرجل شيئاً يتفد المرأة منه وإن هلك بحبها ، وإن هدمت عينها من حافاته وجوانبه : فيه الرجولة إذا كان شهياً ، وفيه الضمير إذا كان شريفاً ، وفيه الدم إذا كان كريماً . فوالذي نفسى بيده ، لا تموذ المرأة بشئ من ذلك ساعة تبجن عواطفه ، وينفر طائر حله من صدره ، إلا عاذت — والله — بماذا يحميها ويصنها ويعد على طهارتها جناح ملك من الملائكة »

٢ — « ... ويسرف على بعضها أحياناً فأتلهب عليها في زفرات كعمعة الحريق حين ينطبق مثل الفك من جهنم على مدينة قائمة فيمضغ جدرانها مضغ الخبز اليابس ؛ ثم يسرف على حبها أحياناً فينحط قلبي في مثل غمرات الموت وسكراته يتطوح من غمرة إلى غمرة ؛ فأنا بين نعمة تنجأ ، وبين عافية تتحول ، وكأني لا عمل لي إلا أن أصعد مئة درجة لأهبط مئة درجة ... »

٣ — « لقيتها وما أريد الهوى ولا تعمدت قلبي ، ولا أحسب أن فيها أموراً ستثول ما لها ؛ وكنت أظن أن المستحيل قسبان : ما يستحيل وقوعه فلا تقضى إليه ، وما يمكن وقوعه قتهله فلا يقضى إليك . ولكن حين توجد المعجزة تبطل الحيلة ؛ ومق استطردك القدر الذي لا مفر منه ، أقبل بك على ما كنت منه تفر »

٤ — « ... إنها لأبلغ ذات لسان ، وأبرع ذات فكر ، وأروع ذات نفس ؛ ولو كنا سليلي أبوة ما شهدت لها بأكثر من هذا حرفاً ، ولو كان دمي من أعدائها ما نقصتها من هذا حرفاً ، وعلم الله ما أبغض فيها إلا هذه التي أشهد لها ... »

٥ — « ... دعني أقول لك : إني أبغض من أحبها ... وإن هذا البغض وجه آخر من الحب ، كالجرح : ظاهره له ألم وباطنه له ألم ! »

٦ — « ... وكما ينشأ الكفر أحياناً من عمل العقل الإنساني إذا هو تحكم في الدين ، يأتي البغض من هذا العقل بسينه إذا هو تحكم في الحب ! »
(الرافعي)



أترى صوتي يبلغ إليها حيث تقيم بالشام شاردة الخيال مستطارة القلب ؟
أم ترى صوتي يبلغ إليه تحت أطباق الثرى وبيننا هذا القدر من عمر الزمان
كأنه من البعد وانفساح المدى سنوات وسنوات ؟

إنه ليخيّل إلى أن هذا الحديث الذي أكتبه عنها وعنه هو رسالة من الغيب إلى هذه الجيبة الواجدة المحزونة ، من الجيب الذي أحبا أعنف الحب وأرقه وما تراءى لها مع ذلك في عمره الطويل إلا الرجل القاسى الذى حطم قلبها بقسوته وكبريائه ، ومات وما تلقت رسالته الأخيرة فنفدت رُوْحُه من أقطار السموات لتُمليها على وفيها العذرة والاستغفار ...

آه لو تدرين كم كان يحبك أيتها الجيبة ! ... فهل كنت ... ؟ ولكن ...
ولكن لا سبيل إلى ما فات ... !

لقد أحبا جهد الحب ومداه ، جبا أضل نفسه وشرّد فكره وسلبه القرار ؛ ولكنه حب عجيب ، ليس فيه حنين الدم إلى الدم ، ولكن حنين الحكمة إلى الحكمة ، وهفوة الشعر إلى الشعر ، وخلوة الروح إلى الروح في مناجاة طويلة كأنها تسبيح وعبادة ، وأسرف عليه هذا الحب حتى عاد في غمراه خلقاً بلا إرادة ، فليس له من دنياه إلهى ، وليس له من نفسه إلا ما تهب له من نفسه !
والرافى رجل — كان — له ذات وكبرياء ؛ فأين يجد من هذا الحب ذاته وكبرياءه ؟ هكذا سألته نفسه !

وأحبا أديبة فيلسوفة شاعرة تستطيع أن ترتفع إلى سماءه وتملأ في واديه ، وله مثل قدرتها على الطيران والتحليق في آفاق الشعر والحكمة والخيال ، فما التقيا مرة حتى كان حديثهما فنوناً من الشعر وشذرات من الفلسفة وقليلاً من لغة المشاق في همس من لغة العيون ... وقال لها مرة : « إن الحب يا عزيزتى ... »
قالت : « إن فلسفة الحب ... »
قال : « بل أعنى حقيقة الحب ومعناه ... »
قالت : « دع عنك يا حبيبي ... إن أحلام الحب هي شىء غير الحب ، أفأنت تريد ... ؟ »

فاختلجت شفتاه وأطرق ، وراح يسأل نفسه : « ما الحب وما فلسفة الحب ؟
يا ضيعة المنى إن كان الحب شيئاً غير الذى فى نفسى ! »
وتحدث ضميره فى ضميرها فابتسمت وهى تقول : « أنا ما أحببتك رجلاً
بل فكراً وروحاً ونفساً شاعرة ، وأنت بكل ذلك ملء نفسى وملء قلبى ؛
فلا تلمس فى طباع أنثى وإلا ضل ضلالك أيها الحبيب ... ! »
قال : « فهل رأيتنى يا حبيبتى إلا فكرة تطيف أبدأ بك ، وروحاً ترفرف
حواليك . ونفساً تعترف الشعر والحكمة من وحي عينيك ... ؟ » قالت : « دع
عنك ذكر عينيَّ يا حبيبي . إن الحب ليس هناك ، إن الحب ... » قال : « لا تحدثينى
عن الحب ، يخيل إلىّ أنى أعرفه لأنى أجد مسّه على قلبى كلذع الجمر ، ولكن
آه ، ولكنك أنتِ ... »

وقالت له نفسه : « إنك يا صاحبي تضرب فى بيداء ؛ إن الشعر والحكمة
والفلسفة لا تلد الحب ، فهل أحببتها أنت إلا للشعر والحكمة والفلسفة ؟ ولكنك
بذلك لن تجد منها الحب ، إن الحب من لغة القلب ، أما هذه ... »
وكان يحبها أديبة فيلسوفة شاعرة ، فعاد يواعد بينه وبينها أنها فيلسوفة شاعرة !

وامرأة هى كانت — إلى أديها وفلسفتها — « فتنة خلقت امرأة ، فإذا نظرت
إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك : إذا لم تأت إلىّ فأنا آتية إليك ... وهى أبدأ
تشم أن فى دمها شيئاً لا يوصف ولا يسمى ولكنه يجذب ويفتن ، فلا تراها
إلا على حالة من هذين ، حتى ليظن كل من حادها أنها تحبه وما به إلا أنها تفتنه ...
» رشيقه جذابة تأخذك أخذ السحر ، لأن عطر قلبها ينفذ إلى قلبك من الهواء ؛
فإذا تنفست أمامها فقد عشقتها ...

« أما أنوثتها فأسلوب فى الجمال على حدة ؛ فإذا لقيتها لا تلبث أن ترى عينيك
تبحثان فى عينيها عن سر هذا الأسلوب البديع فلا تعثر فيهما بالسر ولكن بالحب ...
وتنظر نظرة النزال المدعور ألهم أنه جميل ظريف فلا يزال مستوفزاً يتوجس

في كل حركة صائداً يطلبه ... (١) »

والرافعي رجل كان — على دينه وخلقه ومروءته — ضعيف السلطان على نفسه إذا كان بإزاء امرأة ؛ فما هو إلا أن يرى واحدة لها ميزة في النساء حتى يتحرك دمه وتتفعل أعصابه ؛ وما كان — رحمه الله — يرى في شدة الإحساس بالرجولة وفي سرعة الاستجابة العصبية إلى المرأة إلا أنها أحد طرفي النبوغ ، أو أحد طرفي النبوة كما كان يقول ؛ فما كان يرى له وقاية من سحر المرأة حين يحس أثرها في نفسه إلا أن يسرع في الفرار ، وكثيراً ما كان يقول : « الفرار الفرار ؛ إنه الوسيلة الواحدة إلى النجاة من وسوسة الشيطان وغلبة الهوى ... ! »

وقالت له نفسه : « ما أنت وهذا الحب الذي سلبك الإرادة وغلبك على الكبرياء ويوشك أن يهوى بك من وسوسة النفس وفتنة الهوى إلى أرذال البشرية ... ! »

فكان لصوت النفس في أعماقه صدى بعيد ...

وكان يحبها ليجد في حبها ينبوع الشعر ، فما وجد الحب وحده ، بل وجد الحب والألم وثورة النفس وقلق الحياة ؛ ووجد في كل أولئك ينابيع من الشعر والحكمة تفيض بها نفسه وينفعل بها جنانه ويضيء بها فكره ؛ وكان آخر حبه الألم ، وكانت آلامه أول قدحة من شرار الشعر والحكمة ...

وقالت له نفسه : « ها أنت ذا قد بلغت من الحب ما كنت ترجو ، فلم تبق إلا الغاية الثانية وإنك عنها لعم كريم ... ! »

وهي فتاة ذات جمال وفتنة ، ولها لسان وبيان ، وما يمنعها دينها ولا شيء من تقاليد أهلها أن يكون لها مجلس من الرجال في ساعة في يوم من كل أسبوع ، يضم من شعراء العربية ورجالها أشتاتاً لا يؤلفها إلا هذا المجلس المعطر بمطر

الشعر وعطر المرأة الجميلة؛ أفترامهم يجتمعون في دارها كل أسبوع لتتوارى منهم خلف حجاب فلا سمر ولا حديث؟

والرافعي غيور شمس كثير الأثرة، لا يرضيه إلا أن يكون على رأس الجماعة . وقالت له نفسه : « أنت هنا وحدك أم ترى لكل واحد من هؤلاء هنا هوى وحبياً ... ؟ »

وكانت القطيعة بين الرافعي وبينها من أجل ذلك كله : من أجل أن له ذاتا وكبرياء ، وما يريد أن تفتني ذاته وكبرياؤه في امرأة ؛ ومن أجل أنها فيلسوفة وشاعرة ، وما تجتمع الفلسفة والحب في قلب حواء ؛ ومن أجل أنها أنثى وأنه رجل له دين ومروءة وزوجة ودار ؛ ومن أجل أنه بلغ مبلغه منها حين وجد الألم في حبها فوجد ينبوع الشعر الذي كان يفتقد ؛ ومن أجل أنه الرافعي الغيور الظنين الكثير الأثرة والاعتداد بالنفس ... !

وُخِيَّلَ إليه حين كتب إليها رسالة القطيعة في يناير سنة ١٩٢٤ أنه يفضها ، وأن هذا الحب الذي قطعه عن دنيا الناس عاماً بحاله قد انتهى من تاريخه وطواه القدر في مدرجة الفناء ، وأن نفساً كانت في الأسر قد خرجت إلى فضاء الله ... وأحس في نفسه حديثاً طويلاً يريد أن يفضي به ، وشعر كأن في قلبه ناراً تَلْظَى ، واصطرعت في نفسه ذكريات وذكريات ، وُخِيَّلَ إليه أنه يكاد يختنق ؛ فصاح من كل ذلك مغيظاً محنقاً يقول : « أيتها المحبوبة ، إنني أبغضك ... إنني أبغضك أيتها المحبوبة ! »

ليت شعري ، أكان الرافعي يعني ما يقول ؟ أكان على يقين حين زعم أنه يفضها ؟ أم أنه استعمار للحب لفظاً متكبراً من كبرياؤه العاتية فسماه البغض وما هو به ولكنها ثورة الحب حين يبلغ عنفوانه فتختلط به مذاهب الفكر ومذاهب النظر فلا يبقى فيه شيء على حقيقته ؟

كلا ، ما أبفض الراقى صاحبه يوماً منذ كانت ولا استطاع أن يفك نفسه من وثاقها ، وما هذه الثورة التي ألهمته كتابيه « رسائل الأحران ، والسحاب الأحمر » إلا لون من ذلك الحب وفصل من فصوله وكان الخطأ في العنوان ؛ فلما تاب إليه نفسه نزع به الحنين إلى الماضي ولكن كبرياءه وقفت في سبيله ، قفل حيث هو ولكن قلبه ظل يتزى بالشوق والحنين ... !

وجاءت صاحبه إلى طنطا بعد ذلك بقليل ، مدعوة إلى حفلة خيرية لتخطب ، وكان الراقى مدعواً لمثل ما دعيت له . وعلى غفلة التقت الميون ، فدار رأس الراقى وذهب به ؛ وعاد الزمان القهقري لينشر ما ضيه على عينيه ، وزلزلت نفسه زلزالاً شديداً حتى أو شك أن تغشاء غاشية ، وحاول أن يتحدث فوقفت الكبرياء بين قلبه ولسانه ؛ وخشى أن يفتضح فنهض عن كرسيه متطلقاً إلى الباب ؛ ولحقه صديقه الأديب جورج إبراهيم ، فأفضى إليه بذات صدره وودع صاحبه بين محتلج ، ومضى ...

وانتهى الاحتفال ، ووقفت (هي) تدير عينها في المكان فما استقرتا على شيء ؛ ووجدت في نفسها الجرأة على أن تقول : « أين الراقى ؟ » فما وجدت جواباً ... وكان الراقى وقتئذ جالساً إلى مكتبه ينشئ قصيدة لمجلة المقتطف عن بعث الحب ... وكان آخر لقاء ... !

ولقيت الراقى في خريف سنة ١٩٣٢ ، فسرحتنا في الحديث عن الحب ، فكشف لي عن صدره في عبارات محمومة وكلمات ترتعش ، ثم قال : « ... وإن صوتاً ليهتف بي من الغيب أن الماضي سيعود ، وأنتى سألقاها ، وسيكون ذلك في تمام عشر سنين من رسالة القطيعة : في يناير سنة ١٩٣٤ ... » وأخذ يقبض أصابعه ويبسطها ثم قال :

« نعم ، بعد أربعة عشر شهراً سيكون هذا اللقاء ... إن قلبي يحس ، بل

لمآنى لوقن ... بعد أربعة عشر شهراً ، فى تمام السنة العاشرة منذ فارقتها مفضباً ،
سنلتقى ثانية ويعود ذلك الماضى الجميل ، إنها تنتظر ، وإننى أنتظر ...! « وظل
على هذا اليقين أشهراً وهو يحصى الأيام والأسابيع كأنه منها على ميعاد ...!
ومضت السنوات العشر ، ومضى أربعون شهراً بعدها ، وما تحقق أمله
فى اللقاء حتى لقي الله ...!

هذا هو الرافى العاشق ، جلوت صورته كما عرفته ؛ أما هى ، لأما صاحبته
التي كان من تاريخه معها ما كان ، فهل كانت تحبه ؟ وما كان هذا الحب ؟ وما ذا
كانت غايته ؟



هى وهى ... ؟!

« أتذكر إذا التقينا وليس بيننا شائكة فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً فى أساليب الحديث غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باتنين فيما بين قلوبنا ؟
... وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل ، كأن فى كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد ؟
... ولم تكده العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلناهما أسلحتها ... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب ... ؟

« وقلت لى بعينيك : أنا ... وقلت لك ببينى : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكافئنا ؟
« وتعارفنا بأحزانتنا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها ؟
« وجذبتهى سحتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها ؛ فإذا هو إعجاب ؛ فإذا هو إكبار ؛ فإذا هو حب ؟
« وعودت عيني من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟
« وجعلت أراك تشعر بما حولك شعوراً مضاعفاً كأن فيه زيادة لم تزد ؟
« وكان الجو جو قلبينا ...
« وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكافئنا مرة ثانية ... ؟ »
(هى)



« ... بماذا أصف مكاناً للحب كأنما سر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه تقصانا من العمر بل زيادة عليه ؛ وكانت يا حبيبى كل دقيقة وثانيتها فى مجلسك الساحر كأنها بعض الفكرة والحس لا بعض الزمان والمكان ...
« ... وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنى بأزاء سر وضعى فى ساعة من غير الدنيا وحصرتنى فىك وحدك ...

« وهاجتنى من يقظتى واقتمعت على من حنرى ...
« وخلتني وعينيك ، وخلتني وما كتب على ...
« واتسعت روعى لتشمك ، فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تنظرين فى غرقتك ولكن فى داخل نفسى ...

« ... وكنا تتكلم ولكن ألفاظنا تتماق أماننا ويلثم بعضها بعضاً من حيث لا يراها إلا عيناى وعيناك

« وتراءت النفسان ففلاطنا المكان بأفراح الفكر ، واستفاض السرور على جالك بمعنى كلون الزهرة النضرة هو عطرها للنظر

« وقلت لى بجملتك : أنا ... وقلت لك بجملتى : وأنا ... »
(هو)

إني لأعرفه عرفاني بنفسى ، فما بى شك فيما أكتب عن حبه ؛ ولقد خلطني بنفسه زمناً فإني لأسمع نجواه وأقرأ سره وأعرف ذات صدره ، فما أصف من حبه إلا مستيقناً كأنما أنقل عن لوح مسطور في فؤادي ، أو أثبت من حادثة في تاريخ أياي ماثلة في نفسى بصورها وألوانها وحوادثها فما يغيب عنى منها شيء . ولولا تقاليد الناس وآداب الجماعة لمزقت النقاب عن وجه الحديث وجلوته على القراء في بيان سافر كإشراق الضحى ، ولكن ... ولكنها هي ...

أما هي فما في يدي شيء من خبرها إلا ما حدثني به الراقى أو حدثتني رسائله ، فما أتحدث عن حبه إلا راوية يكتب ما يسمع لا ما يشهد ، أو محققاً يضع كلمة إلى كلمة ، ويزاوج بين رسالة ورسالة ليخرج منهما معنى ليس في يده من حقيقته شيء إلا ما يهديه الفكر وصواب الرأي وملابسات الحادثة

ولإنها لأديبة شاعرة يعرفها كثير من قراء العربية وأعرفها عرفانهم ، وحسبي هذا مقدمات إلى النتيجة ، وما يعسر على من يمسك طرف الخيط أن يصل إلى آخره

لقد التقيا وما بينهما شائكة ولا يربطهما سبب ؛ فما كانت إلا نظرة وجوابها حتى ارتبطا قلباً إلى قلب ؛ وكان الأدب رباط بينهما أول ما كان ، ثم استجرهما الحديث إلى فنون من الكلام فكشفت له عن آلامها وكشف لها عن آلامه ، فكان عطف وإشفاق ؛ ثم تحدثت عن أحلامها وتحدثت عن أحلامه ، فكان الحب ؛ ثم ... ثم كانت القطيعة حين بلغ الحب غايته ونال مناله من نفسها ومن نفسه ، فافترقا حين كان يجب أن يبدأ اللقاء ليتذوقا سعادة الحب ويقطفا من ثمراته ... وضرب الدهر من ضرباته فإذا هو تحت الرغام ، وإذا هي في المستشفى تترض من وهن في أعصابها ؟

لم تكن (هي) تقصد الحب ولا تعمدته ولا كان هو ، ولكنها أديبة تعرف موازين الكلام ، لقيت الأديب الذي تعجب به ويفتنها بيانه ، فأحبتة (عقلاً جيداً) كما تسميه في بعض رسائلها ...

وكان سعيه إليها يلتمس الشعر والحكمة ، والشعر والحكمة هما رابطتها إليه وفانتها به ؛ فتصنعت له لتفتنه وتزيده شعراً وحكمة ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده ، ثم تصنعت لتزيده هي به ؛ لأنها وجدت به نفسها ، ووجدت به الشعر والحكمة والبيان ؛ فأحبتة (أستاذها ومرشدها) لأنه أوحى إليها ما عجز عنه الآخرون ، لأنه فجر لها ينبوع الشعر وعلمها البيان . هكذا تقول في بعض رسائلها ...

وهي فتاة لم يسألها الدهر ولم تزل منذ كانت — غرضاً لسهام الأيام ، تنوشها الآلام من كل جانب ، ولها نفس شاعرة تضاعف أحزانها فتجعل لها من كل همٍ همين ، وإن حوالياً لكثيراً من الأصدقاء يزدلفون إليها ويخطبون ودها ، ولكنها تريد الصديق الذي يستمع إلى شكواها من الأيام فتستريح إليه ، أكثر مما تريد الصديق الذي لا تسمع منه إلا كلمات الزلنى والتجيب واصطناع الهوى والغرام ... وتحدث إليها الرافى وتحدثت إليه ، وقصت عليه من أحزانها ، فاخضلت عيناه وأطرق ، فوضعت يدها على يده وهي تقول :

« سأدعوك أبى وأمى مهية فيك سطوة الكبير وتأثير الأمر ، وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمجيبين ؛ وسأدعوك أخى وصديقي ، أنا التي لا أخلى ولا صديق ؛ وسأطلمك على ضعفى واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيّل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد !

« وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان ، ثم أبكى أمامك وأنت

لا تدري ... ! »

وأحبتة (صديقاً) تفزع إليه إذا ضاقت بالآلامها وحزبتها المهموم ...

وهي الفتاة التي لم تعرف في حياتها إلا التجهم والعبوس ، ولم تعرف من دنياها إلا الجد الصارم ؛ وما كان لها من عمل غير الاستغراق في الفكر ، أو الاستغراق

في الفن ؛ وإنما لأنثى وإن كانت فيلسوفة شاعرة ...

والرافعي رجل — كان — لا يحمل من هم ، فما يدع المزاح والدعابة وإن الدنيا
لتضطرع حواليه وإن كان القضاء منه بمرصد يراه ويتوقعه ! وإنه ليهزل في أجد
الجد وأخرج الساعات هنزله في أصنى حالاته وأسعد أيامه ؛ فما يجالسه ذوم
الإسرى عنه كأنما يمسح قلبه فيمحو أحزانه ...

وتحدث إليها وتحدث إليه ، فأحبته (الرفيق الأنيس) الذي تسيطر عليها
روحه فينزعهما من دنياها العابسة إلى دنياه ...

واستمعت إلى صوته يتحدث ، فكان له في نفسها رنين ؛ ونظرت إلى سحنته
الفكرية النبيلة فرأت فيها امرأة نفس صافية لا تعرف الخداع والتزوير ؛ ولحنته
يبتسم ، فجذبها إليه ابتسامة لم تجد مثلها إلا زيفاً على شفاه الرجال ؛ ونظر إليها
ونظرت إليه ، وقال وقالت ، وتحدث قلب إلى قلب ، وتناجيا في صمت ؛ وتركها
وهي في نفسه ، ومضى وهو في مجلسها ؛ وأحست في نفسها إحساساً ليس
لها به عهد ؛ فتناولت قلمها لتكتب له :

« ... سأستعيد ذكرك متكلماً في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطاعك
وأمالك ، حكاية البشر المتجمعة في فرد واحد ؛ وسأسمع إلى جميع الأصوات
على أعر فيها على لهجة صوتك ، وأشرح جميع الأفكار وأمتدح الصائب
من الآراء ليتعاضم تقديري لأرائك وأفكارك ... وسأبتسم في المرأة ابتسامتك .
« في حضورك سأحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأحول
عن الآخرين إليك لأفكر فيك ...

« سأخيل ألف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ،
وكيف تتغلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال
النبيل ...

« وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً ، لأنك أوحيت إلى ما عجز دونه

الآخرون. أتعلم ذلك ، أنت الذى لاتعلم ؟ أتعلم ذلك ، أنت الذى لا أريد أن تعلم ...!»

وكان حبها إعجاباً بالعقل الجميل ، ثم تقديراً لأستاذها الذى فجر لها ينبوع الشعر والبيان ، ثم إجلالاً للصديق الذى وجدت مفرعها إليه ، ثم انعطافاً إلى الرفيق الأنيس الذى كشف لها عن أفراح الحياة ، ثم .. ثم حباً يستأثر بنفسها ويسيطر عليها فى غيبه ومشهده فما لها عمل إلا أن تفكر فيه ...

وأضلها الهوى وأضلته ؛ وخيل إليها أنها تستطيع أن تكون أرفع محلاً لو أنها منعتة بعض ما تمنحه ، وخيل إليه أنه يستطيع ؛ وقالت له : « أنا لا أشفق على آلامك ؛ وهل ترانى أكره لك النبوغ والعبقرية ؟ » وقالت له كبرياؤه وغيرته وظنونه غير ما قالت صاحبه ؛ ومضى كل منهما إلى طريق والقلب يتلفت ؛ وما عرفت إلا من بعد أنه يحبها حباً لا يطيق أن يتسع أكثر مما تتسع له نفس إنسان ؛ وما عرف إلا من بعد أنها كانت تجافيه لتطلب إليه أن يكون فى الحب أجراً مما كان ...

وعرف وعرفت ، ولكن العقدة لم تجد من يحلها وبينهما فلسفة الفيلسوف وكبرياء التكبر ؛ وظل وظلت وبينهما البعد البعيد على هوى وحنين ... حتى جاء الموت فحل العقدة التى استعصت على الأحياء ...



تعقيب

... هذه قصة الراقى وفلانة ، كما رواها لي ، وكما يعرفها كثير من خاصته .
وإني لأعلم أن كثيراً ممن يعرفونها ويعرفونه سيدهشون إذ يقرءون قصة هذا
الحب ، وسيتناولونها بالريبة والشك ، وسيقول قائل ، وسيدعى مدع ، وسيحاول
محاوّل أن يفلسف ويعلل ؛ ولا على من كل أولئك ما دمت أروى القصة التي
أعرفها ، والتي كان لها في حياة الراقى الأدبية تأثير أيُّ تأثير يُردُّ إليه أكثر
أدبه من بعد . وحسبه أنه كان الوحي الذي استمد منه الراقى فلسفة الحب والجمال
في كتبه الثلاثة : رسائل الأحران ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ؛ وحسبي
أنني قدمت الوسيلة لمن يريد أن يدرس هذه الكتب الثلاثة على أسلوب من العلم الجديد !
على أنني مستول أن أبري نفسي أمام قدس الحق ؛ فأعترف هنا بأن ما رويت
من هذه القصة كان مصدره الراقى نفسه ؛ مما حدثني به وحدث أصحابه ، أو مما جاء
في رسائل أصحابه إليه ممن كانوا يعرفون قصته ؛ وما بي شك فيما روى من هذا
الحديث ، فما جرّبت عليه الكذب ، ولا كان هناك ما يدعو إلى الاختراع والتزويد
كما يزعم من يزعم ؛ ولكنها حقيقة أثبتتها للتاريخ ، لعل باحثاً مدققاً يوفّق في غد
إلى إثبات ما أعجز اليوم عن التعليل له . X

على أن الراقى قد أقراني رسالة أورسالتين بخط (فلانة) إليه ؛ وهما وإن لم تدلا
دلالة صريحة على حقيقة ما رويت من قصة هذا الحب ، لا تنفيانها كذلك ، بل
لعلهما أقرب إلى الإثبات منهما إلى النفي ؛ والحذر طبيعة المرأة !

ثم إن الراقى لم يخصني وحدي برواية هذه الحادثة ؛ فإن عشرات من الأدباء
في مصر قد سمعوها منه ؛ ومنهم من يعرف (فلانة) معرفة الرأي والنظر ، ومنهم
من كان يغشى مجلسها لا يتخلف عنه مرة ؛ ومنهم من كان الراقى يقصد بالحديث
إليه أن يكون بريداً بينهما ينقل إليها حديثه شفةً إلى شفة . وفي الناس بُردُ

إن لم ترد على ما سمعت من حديث الحب لم تنقص منه شيئاً ! فلو أن الرافعي كان يترشد فيما روى لي ولأصحابي من حديث هذا الحب لخشي مغبة أمره ؛ وإن (فلانة) يومئذ ذات جاه وسلطان !

وثمة برهان آخر لا يتناوله الشك ؛ هو رسالة من رسائلها نقلها الرافعي من كتاب من كتبها المعروفة لأسميه ، إلى كتابه أوراق الورد^(١) ؛ يزعم أنها رسالة منها إليه في كتاب ، جواباً على رسالة بعث بها إليها — وكانت هذه بعض رسائلها في الرسالة كما رويت من قبل^(٢) — وأوراق الورد معروف مشهور ، وكتابها معروف مشهور كذلك ؛ ومما لا يحتمل الشك أن تكون (فلانة) لم تقرأ هذه الرسالة في كتاب الرافعي ولم ينهها أحد إليها ، وأبعد من الشك أن تكون قد قرأت هذه الرسالة المنشورة قبل ذلك في كتاب يحمل اسمها ثم لم تفهم ما يعنيه الرافعي ؛ ولا شيء وراء ذلك إلا أن تكون قرأت ، وفهمت ، وسكنت ؛ ولا شيء بعد إلا أن يكون بينهما شيء يؤيد ما رواه الرافعي من قصة هذا الحب ... !

على أن اعتراضات ثلاثة توجهت إلى ما رويت من هذه القصة لا بد من التنبيه إليها : أما أحدها فن الأستاذ الأديب جورج إبراهيم ؛ فهو ينكر على أن أستند إلى هذه الرواية ، ويروي لي أنه صحب الرافعي في أولى زيارته لفلانة ، وشهد ما كان من تأثير الرافعي وانفعاله وجذوبته ؛ ولكنه إلى ذلك ينكر أن يكون بين الرافعي وفلانة صلة بعد هذه الزورة ، ويصحح ما روته عن الرافعي — وكان من سامعيه — بأنه حبٌّ من طرف واحد ، اختلطت فيه مذاهب الفكر ومذاهب النظر فشبه للرافعي ما شبهه ؛ فما يحكيه هو صورة ما في نفسه لا صورة ما كان في الحقيقة ... !

فالرافعي عند الأستاذ جورج إبراهيم لم يكذب ولكنه أخطأ التقدير والنظر .

(١) أوراق الورد ص ١٤٣ — ١٥٠ ، وتقرأ فقرات منها في هذا الكتاب ص ٩٤ — ٩٦

(٢) ص ٨٣ من هذا الكتاب

وعندنا أن عدم علم الأستاذ جورج أن صلة ما كانت بين الرافعي وفلانة بعد الزّورة الأولى ، لا يبنى أن الصلة كانت حقيقةً ولم يعلم بها ؛ فحديثه من ثمّ لا يبنى شيئاً ولا يثبت ، ويبنى بعد ذلك ما يستنبط من الرأى على هامش القصة .

وقريب مما يرويه الأستاذ جورج ، ما تستنبطه جريدة المكشوف في بيروت ، في حديث تناولت به بعض ما نشرنا من قصة حب الرافعي .

وتعقيب ثان توجه به صديقنا الأستاذ فؤاد صروف — محرر المقتطف — على ما روينا ، قال :

« لقد سمعت هذه القصة من الرافعي كما رويتها ؛ فما أشك في صحة ما تكتب ، ولكنني أسأل : هل كانت (فلانة) تبادل الرافعي الحب ... ؟
« هاك خبراً يدعوك مى إلى هذا السؤال :

« في يناير من سنة ١٩٣٤ (أو ١٩٣٥) دعنتى فلانة إلى مقابلتها ؛ فلما شخصتُ إليها رأيت في وجهها لوناً من الغضب ، فدفتُ إلى رسالتين من رسائل الحب بعث بهما الرافعي إليها لأرى رأى فيها ؛ ثم قالت : ماذا ترانى أفعل لأزود عن نفسى ؟ أترانى أتقدم في ذلك إلى القضاء ؟

قال الأستاذ صروف : « فاعتصمت بالصمت من لا ونعم ، وتركت لها أن تستشير غيرى ؛ ولست أدرى ما كان بعد ذلك ! » .

قلت : وهذه رواية جديرة بأن تذكر — ومعدرة من ذكرها إلى الأستاذ صروف — على أنها لا تدل على شيء في هذا المقام أكثر من أن فلانة لم يكن يروقها في سنة ١٩٣٤ أن يتجسّب إليها الرافعي ؛ فماذا كان أمره وأمرها قبل ذلك بعشر سنين ؟

أيكون لهاتين الرسالتين اللتين يتحدث عنهما الأستاذ صروف — صلة بما كان في نفس الرافعي من يقين بأنه سوف يلتقي فلانة ليصل ما انقطع من حبال الود بعد عشر سنين من يوم القطيعة^(١) .

(١) اقرأ ص ٩٠ — ٩١ من هذا الكتاب

أعنى : هل حاول الرافى - بعد عشر سنين من القطيعة - أن يعيد ما كان بهاتين الرسالتين فلم يصادف قلباً يستجيب لدعائه ؟
على أن هذا الخبر - أيضاً - لا ينفى شيئاً ولا يثبت ؛ ولكنه يفتح باباً إلى الاستنباط والرأى .

ولكنه مما لا شك فيه أن الرافى لم يكن يعلم شيئاً عن وقع هاتين الرسالتين فى نفس صاحبه ؛ ولا أحسبها صنعت شيئاً يدل على مبلغ استيائها من هاتين الرسالتين ، وإلا لما ظل يتعلق بالأمل فى لقائها إلى شتاء سنة ١٩٣٥ ، وكنت معه لما هم بزيارتها (١) .

وثمة اعتراض ثالث يعترضه الدكتور زكى مبارك ؛ وما كان لى أن أثبتته هثا لولا أن أثبتته هو فى كتاب من كتبه نشره على الناس منذ قريب ، ولولا أن أشار إليه فى مقالات نشرها فى مصر وفى العراق وفى بيروت !
والدكتور زكى مبارك أديب مشهور ، ولكن آفته - ولكل أديب آفة - أنه يدس أنفه فيما يعنيه وما لا يعنيه ؛ وهو قد شاء أن يحشر نفسه فى هذه القصة التى لا يهمه منها إلا أن يعلن للناس - والإعلام - عن نفسه بعض خصائصه الأدبية - أنه كان يجلس إلى (فلانة) جنباً لجنب فى الجامعة المصرية بضع سنين !
وليس يهمنى أن يجلس الدكتور زكى مبارك جنباً لجنب إلى فلانة أو إلى نساء الأرض جميعاً - كما يريد أن يتعامل عنه الناس فى أكثر ما يكتب - ولكنه يزعم أن ما كتبناه عما كان بين الرافى وفلانة ليس من الحقيقة فى شىء ، لأنه كان يجلس مع فلانة جنباً إلى جنب فى الجامعة بضع سنين فلم تحدته يوماً أن حباً كان بينها وبين الرافى !!

فمن شاء أن يقرأ مثلاً للحجة الواضحة فى أدب الدكتور زكى مبارك ، فليقرأ هذه الحجة ؛ على شرط أن يكون مؤمناً بأن الدكتور زكى مبارك لا يجلس

(١) انظر ص ٨٤ من هذا الكتاب .

إلى (فلاناتٍ) ولا يجلس إليه (فلاناتٌ) إلا ليحدثنه عما كان له من جولات
في ميادين الحب يسألنه الرأي والمعونة !

وليدع القارىء بعد ذلك حديث الدكتور عن العرى والعراة ، وعن (الأديب
العريان ...) الذى روى هذه القصة .

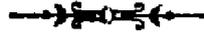
وعفا الله عن أهل الأدب !

هذا كل ما تلقيت من اعتراض المعترضين ، من أهل الأدب أو من أهل
الدعوى ؛ وعلى أى الوجوه انتهى رأى الأديباء فى تحقيق هذه القصة ، فإنه مما
لا شك فيه أن الرافى كان يحب (فلانة) ؛ وهذا حسبي ؛ فما يعينى من هذا التاريخ
إلا إثبات المؤثرات التى كانت تعمل فى نفس الرافى فتلهمه الشعر والبيان ؛ أما هى
وما كان منها وحقيقة عواطفها ، فشىء يتصل بتاريخها هى بعد عمر مديد !
ونعود إلى تمة القصة بالحديث عن كتب الرافى فى فلسفة الجمال والحب .



رسائل الأحزان

« هي رسائل الأحزان ، لا لأنها من الحزن جاءت ، ولكن لأنها إلى الحزن انتهت ؛
ثم لأنها من لسان كان سلماً يترجم عن قلب كان حرباً ؛ ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان ينبع
كالحياء وكان كالحياة ماضياً إلى قبر ... »
(الرافعي)



خرج الرافعي من مجلس صاحبته مفضباً على ما روينا ؛ في نفسه ثورة توجّج ،
وفي أعراقه دم يفور ، وفي رأسه مرّجل يتلهب ؛ وكتب إليها كتاب القطيعة
وأرسل به ساعي البريد ، ثم عاد إلى نفسه فما وجد فيها كتب شفاء لنفسه ،
ولا هدوءاً لفكره ، ولا راحة في أعصابه ؛ وأحس لأول مرة منذ كان الحب
بينه وبين صاحبته أنه في حاجة إلى من يتحدث إليه ؛ وافتقد أصحابه فما وجد منهم
أحدًا يبثه أحزانه ويفضي إليه بذات صدره ويطرح بين يديه أمحاله . لقد شغلته
الحب عن أصحابه عاماً بحاله لا يلقاهم ولا يلقونه ولا يتحدث إليهم ولا يتحدثون ؛
فلما عاد إليهم كان بينه وبينهم من البعد ما بين مشرق عام ومغرب بليليه وأصباحه
وتاريخه وحوادثه . وثقلت عليه الوحدة وضاعت بها نفسه ، ففرغ إلى قلبه يشكو
إليه ويستمع إلى شكاته ، فكتب الرسالة الأولى من « رسائل الأحزن » إلى صديقه
الذي خصه بسرّه ... إلى نفسه .

وترادفت رسائله من بعد مسهبة صافية يصف فيها من حاله ومن خبره وما كان
بينه وبين صاحبته ، في أسلوب فيه كبرياء المتكبر ، ولوعة العاشق ، وصرارة
الثائر الموتر ، و... وذلة الحب المفتون يستجدي فانتته بمض العطف والرحمة والحنان
بدأ الرافعي كتابة « رسائل الأحزان » في يناير سنة ١٩٢٤ ، وانتهى منه
في مساء ١٧ من فبراير سنة ١٩٢٤ .

يخاطب الرافي نفسه في « رسائل الأحزان » على أسلوب (التجريد) ، فهو يزعم أنها رسائل صديق بعث بها إليه ، فتراه يوجّه الخطاب فيها إلى ذلك الصديق المجهول يستعينه على السلوان بالبت والشكوى ؛ ثم يصطنع على لسان ذلك الصديق تتفاً من الرسائل يدير عليها أسلوباً من الحديث في رسائله هو ، وما هناك صديق ولا رسائل ، إلا الرافي ورسائله ، يتحدث بها إلى نفسه عن حكاية حبه وآماله وما صار إليه .

أقول : إن الرافي في هذه الرسائل جعل شيئاً مكان شيء ، فأنشأ هذه الرسائل إلى صاحبتة ثم نشرها كتاباً تقرؤه لتعلم من حاله ما لم تكن تعلمه أو ما يظن أنها لم تكن تعلمه ؛ فهي رسائله إليها على أسلوب من كبرياء الحب ، تشفى ذات نفسه ولا تنال من كبريائه .

وفي بعض حالات الحب حين تقف كبرياء العاشق بينه وبين ما يريد إعلانه ، وتقف النفس وقفها الأليمة بين نداء القلب وكبرياء الخلق ، يتمنى العاشق لو كان له ملء القضاء ليهبه إلى من يحمل عنه رسالة إلى حبيبتة من غير أن يعترف بأنه رسول ... ! وتكون أبلغ الرسائل عنده أن يكتب إلى حبيبتة : « إنه يحبك » يعني : « أنا أحبك ! » ويتحدث إليها عن نفسه بضمير الغائب وهو من مجلسها على صراى ومسمع ، ومن لفتات قلبها وقلبه على مشهد قريب ... !

وبهذا الأسلوب تحدث الرافي عن نفسه بضمير الغائب في رسائل الأحزان . « أنا ... » هذا الضمير الذى لا يتحدث به متحدث إلا سمعت في نوره معنى شموخ الأنف ، وصعّر الخد ، وكبرياء الخلق ؛ لا يؤدي في لغة الحب إلا معنى من التذلل والشكوى والضراعة ، فما تسمعه من العاشق المفتون إلا فى معنى اليد الممدودة للاستجداء ، وما تقرأ ترجمته فى أبلغ عبارة وأرفع بيان وأكبر كبرياء إلا فى معنى : « أنا محروم ... ! » .

يا عجباً للحب ! كل شيء فيه يحول عن حقيقه حتى أفاظ اللغة وأساليب الكلام ... !

وكذلك كان الرافي يقول فى رسائل الأحزان : « هو » ويعنى : « أنا ... »

لأنه لا يريد أن يتنذل كبريائه في لغة الحب ... !

إنني أحسب الرافي لم يكتب رسائل الأحزان لتكون كتاباً يقرؤه الناس ، ولكن لتقرأ هي ، وهي كل حسب من القراء ؛ فمن ذلك لم يجز فيها على نظام المؤلفين فيما يكتبون للقراء من قصة فيها اليوم والشهر والسنة ، وفيها الزمان والمكان والحادثة ؛ بل أرسلها خواطر مطلقة لا يعنيه أن يقرأها قارئها فيجد فيها اللذة والمتاع ، أو يجد فيها الملل وحيرة الفكر وشرود الخاطر .

ولم يكتبها - كما يزعم - رسائل أدبية عامة تم بها العربية تماماً في فن من فنون الرسائل لم يؤثر مثله فيما نقل إلينا من تراث الكتاب العرب ، ليحتذيه المتأدبون وينسجوا على منواله ؛ بل هي رسائل خاصة تترجم عن شيء كان بين نفسين في قصة لم يذكرها في كتابه ولم ينشر من خبرها .

وبذلك ظلت « رسائل الأحزان » عند أكثر قراء العربية شيئاً من البيان المصنوع تكلفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فناً في العربية لم يوفق إلى تجويده . على أنه كتاب فريد في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع ، ولكنه بقية قصة لم تنشر معه ، فجاء كما تأكل النار كتاباً من عيون الكتب فما تبقى منه إلا على الهامش والتعليق ، وصُلب الكتاب رماداً في بقايا النار ... فمن شاء أن يقرأ رسائل الأحزان فليقرأ قصة غرام الرافي قبل أن يقرأه ، فسيجد فيه عندئذ شيئاً كان يفتقده فلا يجده ، وسوف يوقن يومئذ أن الرافي أنشأ في العربية أدباً يستحق الخلود .

قلت : إن الرافي أنشأ رسائل الأحزان ليكون رسالة إليها هي ، فهذا كان أول أمره فيما بينهما من الرسائل التي قلت عنها فيما سبق لهما كأننا يتبادلانها على أعين القراء من غير أن يذيع السر أو ينكشف الضمير ، ومن غير أن يسي بينهما حامل البريد ؛ ولقد ردت صاحبتة ردها على رسالته هذه رسالة مثلها بمشت بها

إليه مع بائع الصحف والمجلات ... ثم تتابعت رسائلهما من بعد على هذا الأسلوب العجيب ... !

وسيأتي يوم يُدرس فيه أدب فلانة صاحبة الرافعي ، وسيجد الباحثون يومئذ لونهاً لذيذاً من البحث إذ يعثرون على رسائلها إليه في بعض كتبها ومقالاتها ، وليس بعيداً أن يقرأ الأدباء يومئذ كتاباً جديداً بعنوان « رسائلها ورسائله » بتاريخها وزمانها وأسبابها ، مقتبسةً مما نُشر ونشرت في الصحف والمجلات من مقالات وأقاصيص بين سنتي ١٩٢٤ و ١٩٣٦ .

أيها الباحث الذي سيأتي أوانه ، اجث عن حشو القول وفضول الكلام في مقالاتها ومقالاته ، واقرن تاريخاً إلى تاريخ وسبباً بسبب ، لتنشر لنا رسائلها ورسائله في كتاب ... !

أراني لم أتحذ عن « رسائل الأحزان » كما يتحدث كاتب من الكتب عن كتاب من الكتب ، فليس هذا إلى ، وإنما قدّمتُ وسائل القول لمن يريد أن يقول ؛ وأحسب أن كلاماً سيقال عن رسائل الأحزان من بعد غير ما كان يقال ، وأعتقد أن الدكتور طه حسين بك لن يكرر مقاله التي قالها فيه من قبل ، يوم أشهد الله على أنه لم يفهم منه حرفاً ؛ وأعتقد أن الدكتور منصور فهمي بك لن يقتصر على قوله فيه من قبل : « إن معانيه من آخر طراز يأتي من أوروبا ... » لأنه سيجد مجالاً للقول في غير معانيه وبيانه .

ولكن في رسائل الأحزان شيئاً غير ما قدمت من أشياءه ، ذلك لأن الرافعي — رحمه الله — كان ولوعاً بأن يضيف إلى كل شيء شيئاً من عنده ؛ وتلك كانت طبيعته في الاستطراد عند أكثر ما يكتب .

سيجد الباحث في رسائل الأحزان عند بعض الرسائل وفي هامشها بعض الصفحات من الكتاب ، كلاماً وشعراً لا يتساق مع القصة التي دويت . لا إن

الرافعي كانت تغلبه طبيعته الفنية في الكتابة أحياناً فيستطرد إلى ما لا يريد أن يقول ،
ليثبت معنى يخشى أن يفوته ، أو ليذكر حادثة يراها بالحادثة التي يرويها أشبه ،
أو لأن تعبيراً جميلاً وجد موضعه الفني من الكلام وإن لم يجد موضعه من الحادثة ؛
فإن رأى الباحث شيئاً من ذلك فلا يداخله الريب فيما أثبت من الحقيقة التي أرويها
كما أعرفها .

وسيجد في بعض الرسائل حديثاً وشعراً عن لبنان وأيام لبنان ؛ وما عرف
الرافعي صاحبه إلا في مصر وإن كان مولدها هناك . فليذكر من يريد أن يعلم ،
أن صاحبة الرافعي هذه لم تكن هي أولى حبائه ، وقد كان له قبل أن يعرفها في الغرام
جولان ، وكان بعض من أحب قبلها فتاة أديبة عرفها في لبنان ، وهي سمية صاحبنا
هذه ؛ وكان بينهما رسائل أثبت الرافعي بعضها في « أوراق الورد » ، وهي التي أنشأ
من أجلها كتابه « حديث القمر » ، على أن عمر الحب لم يطل بينهما ، إذ تزوجت
وهاجرت مع زوجها إلى أمريكا لتشتغل بالصحافة العربية هناك — وما تزال —
فما جاء في رسائل الأحزان من حديث لبنان وذِكر أيامه هناك ، فهو بقية من ذكرى
صاحبة « حديث القمر » أحقه في رسائله حرصاً عليه وبخلاً به على الضياع .

لقد كان حب الرافعي الأخير حادثة في أيامه فعاد حديثاً في فكره ، ورسائل
الأحزان هي أول ما أنشأ من وحى هذا الحب . على إن قارئه يقرؤه فما يعرف أهو رسالة
عاشق الح عليه الحب ، أم زفرة مبغض يتلذع بالمبغض قلبه . والحق أن الرافعي أنشأه
وهو من الحب في غمرة بلغت به من الغيظ والحنق أن يتخيل أنه قادر على أن يبغض
من كان يحب ، بغضاً يرد عليه كبرياءه وينتقم له ؛ فما فعل إلا أن أعلن حبه في أسلوب
صارخ عنيف كما تحنو الأم على وليدها في عنفوان الحب فتعضه وإنما لتريد أن تقبله ،
أو كما تقسو ذراع الحبيب على الحبيب تضمه في عنف وما بها إلا الترفق والحنان ... !
وطبع الرافعي كتابه وأنفذه إلى صاحبه ، فكتبت إليه ... ونازت ثورة الرافعي
حمة نائية فأصدر « السحاب الأحمر »

السحاب الأحمر

« لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر : يا أما ... ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين — حين يقع — أعنف ما في الخصومة ، إذ هو تقابل روحين على تحليل أجزائهما المترجة . وأكبر خصيمين في عالم النفس (هما) متحابان تباعضا ... »
(الرافعى)

ترى ماذا كتبت إليه صاحبته بعد ما قرأت رسائل الأحران فأثارت نفسه بعد هدأها وردته من الغيظ والحنق إلى أن يقول : « يا هذه لأدرى ماتقولين ؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يغسل بالماء والصابون وهيهات ... ! » ويقول : « يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم أن تعلمها أيضاً كيف تسكت عن بعض كلامها » ؟

من لى بأن أعرف ما كان وقع رسائل الأحران في نفسها وما ردت به ؟ إنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون ، والكلام الذى لا يفعله الماء والصابون ، والنجمة الهاوية ، وخداع النظر في الحب ، وفساد الرأى في الهوى ، وطيش القلب في الاستسلام ، ثم ... ثم يحاول أن يعتذر ... !

هنا الحلقة المفقودة في تاريخ هذا الحب ، فلست أدعى المعرفة ، ولقد كنت مع الرافعى مرة في مكتبه وبيننا السحاب الأحمر يقرأ لى بعض فصوله ، فأشرت إليه عند فقرة من الكلام ليجيبني عن سؤال يكشف عن شئ من خبرها ومن خبره ؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدق في طويلاً ثم سكت ، وسبحت خواطره إلى عالم بعيد ، وراحت أصابعه تعبت بما على المكتب من أشياءه ، ثم قال : « أرايت القلم الذى تراءى لى السحاب الأحمر في نصابه بين عينيّ والمصباح ... ؟ » ثم دس يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إلىّ وهو يقول : « ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر . ألس ترى سحاباً يتفرق بالدم كأن قلباً جريحاً ينزف ؟ في شعاعة هذا النور تراءت لى هذه الخواطر التي تقرأها في السحاب الأحمر ... »

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال ...

أحسب أن الرافي حين أنشأ السحاب الأحمر كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف مآناها ومردّها ، ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خيرها في شيء من الغموض والإبهام .

لقد أنشأ الرافي رسائل الأحران ليكون رسالة إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه . ولست أشك أن صاحبه حين تأدّت إليها رسائله قد فهمت ما يعنيه وعرفت ذات صدره . وأحسبها — وهي الأدبية الشاعرة — قد سرّها أن تكون هي فلك الوحي لسأ في رسائل الأحران من كل معنى جميل . أفترأها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة القتب وتصنع الغضب لتفتنه وتزيده وحيّاً وشعراً وحكمة ... ؟

إن كانت هذه رسالتها إليه فما أراها قد بلغت بها إلا أن هاجت كبرياءه . وأثارت نفسه ، فكتب كتابه ولكن لغير ما أرادت وما قصدت إليه ...

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد ، حول فلسفة البفض ، وطيش الحب ، ولؤم المرأة ... [وهو مصدر السحاب الأحمر]

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد : هو أن قلباً وقع في أسر الحب يحاول الفكّك فلا يستطيعه ؛ فما يملك إلا أن يصيح بملء ما فيه : إنني أبفضك أيتها ... أيتها المحبوبة !

وكما يفزع الشخص إذا حزبه أمره إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأي في بلواه ، كذلك فزع الرافي في السحاب الأحمر ، ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره . فهذا صديقه الشيخ علي صاحب المساكين ، وهذا صفيّه وصاحب نشأته الشيخ أحمد الرافي ، وذلك أستاذه ومثله العالي في دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهذه أم ضل ولداها الحبيبان ، وتلك زوج يفارقها

زوجها الحبيب إلى السجن ؛ وهذا ، وهذه ، وتلك ، يحدوثونهم جميعاً حديثهم عن الحب في رأى العين ، وفي رأى القلب ، وفي رأى العقل . ويحدثهم حديثه ... فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعاً إلا أن الرافعى في جهاد عنيف بين قلبه وعقله ، يريد أن يثبت الغلبة لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبتة برأيه وفكره وكبريائه ثم لا تكون الغلبة في النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه على أن كتاب السحاب الأحمر ليس كله خالصاً لصاحبتة وإن يكن من وحيها؛ ذلك أن نسقه العجيب ، ومحاولة الرافعى به أن ينصرف عنها ، قد شرع له في الكتاب مسالك من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبتة

في الفصل الأول من السحاب الأحمر ، يتحدث الرافعى عن فتاة « عرفها قديماً في ربوة من لبنان ، ينتهى الوصف إلى جمالها ثم يقف ! » وهو يعنى صاحبتة التى أمّلت عليه « حديث القمر » وإنك لتقرأ حديثه عنها ، ووصفه لها ، وما كان من أثرها في نفسه ؛ فتسأل نفسك : أى شيء رده إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها في نفسه بعد اثنتى عشرة سنة محال الزمان بها في قلبه وأثبت ؟ فلا تلبث أن تجد الجواب في الأسطر الأخيرة من هذا الفصل :

« إن من النساء ما يُفهم ثم يعلو في معانيه الجميلة إلى أن يمتنع ، ومن النساء ما يُفهم ثم يسفل في معانيه الخسيسة إلى أن يبتذل ... »

« إن من المرأة ما يُحِبُّ إلى أن يلتحق بالإيمان ، ومن المرأة ما يُكره إلى أن يلتحق بالكفر ... »

« من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع ، ومن المرأة مُصرٌّ كره يشبع منه بلا أكل ... ! »

أترأه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة ، ليقول لهذه : إن تلك كانت خيراً منك ؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك ؟ أما أنا فأعرف من أخلاق الرافعى أن هذا معنى لم يكن يعنيه ، ولكنها مساومة في الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبتة ليردها إليه

أو أنه أراد أن ينقذ كبرياءه فيزعم لصاحبه أنه لم يكن يعنيه برسائل الأحران ،
لأن هنالك أخرى ...

وتقرأ « النجمة الهاوية » في الفصل الثاني ، فتسمعه يقول : « تمّ آمالنا
حين لا نؤمل ! » فما تشك أن هناك رسالة إليها ، رسالة يملها الحب الغيظ المحنق ،
يحاول فيها أن يوهما أنها لم تعد شيئاً في نفسه ، وأنه قد تمت آماله واستراحت
نفسه فليس له فيها أمل ولا يتعلق بها رجاء . ثم يستطرد في معاني البغض والهجر
والقطيعة بأسلوب قاس عنيف ، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض في كلماته ؛
فما ينتهي الفصل حتى يستعلن جبه من وراء كلمات البغض وهو يقول : « أشأم
النساء على نفسها من لا تُحِب ولا تُبغِض ، وأشأمهن على الناس من إذا عدتْ
مبغضها لا تُعدّ إلا الذين أحبوها ... ! » ، وإنني لأعرف الرافعي وأستمع
إلى همسات قلبه ، فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول : « إنني أحبك
يا أشأم النساء ! ؟ »

اقرأ في آخر هذا الفصل الصاحب قوله :

يا من على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يوماً ونسأكا
إن الظلام الذي يجلوك يا قمر له صباح متى تدركه أخفاكا

ويتحدث في الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى قضائه ،
وزوجته التي تحبه تشيعه بنظراتها الجازعة ؛ فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين
الزوجين الحبيين ، أي خاطرة في الحب أهمته هذا الفصل البديع ، وكأنك تسمع
الرافعي يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق : « ما الفراق إلا أن تشعر الأرواح
المفارقة أحبّتها بمسّ الفناء لأن أرواحاً أخرى فارقها ؛ ففي الموت يُمسّ وجودنا
ليتحطم ، وفي الفراق يمسّ ليلتوى ؛ وكأن الذي يقبض الروح في كفه حين موتها ،
هو الذي يلمسها عند الفراق بأطراف أصابعه !

« وإنما الحبيب وجود حبيبه لأن فيه عواطفه ؛ فعند الفراق تنتزع قطعة من وجودنا فترجع باكين ونجلس في كل مكان محزونين كأن في القلوب معنى من المناحة على معنى من الموت ... »

« ترى العمر يتسلسل يوماً فيوماً ولا نشعر به ، ولكن متى فارقنا من نحبهم نبه القلب فينا بفتة معنى الزمن الراحل ، فكان من الفراق على نفوسنا انفجاراً كتطائر عدة سنين من الحياة ... » .

ويتحدث في الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب^(١) ، وعن المنافق ، فتلح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه ، وأنه لبسبب مما كان بينه وبين صاحبتة ؛ أفتراه يشير به إلى شيء من أسباب القطيعة ؟ وفي الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدة ضل ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما :

« الحب ! ما الحب إلا لهفة تهدر هديرها في الدم ، وما خلقت لهفة الحب أول ما خلقت إلا في قلب الأم على طفلها ... حب الأم في التسمية كالشجرة : تفرس من عود ضعيف ، ثم لا تزال بها الفصول وآثارها ولا تزال تتمكن بجذورها وتمتد بفروعها حتى تكتمل شجرة بعد أن تفتى عداد أوراقها ليالي وأياماً . وحب العاشقين كالثمرة : ما أسرع ما تنبت ، وما أسرع ما تنضج ، وما أسرع ما تقطف ، ولكنها تُنسى الشفاء التي تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء في الشجرة القائمة ... »

« ... لا لذة في الشجرة ولكنها مع ذلك هي الباقية وهي المنتجة ، ولا بقاء

للثمرة ولكنها على ذلك هي الحلوة وهي اللذيذة وهي المنفردة باسمها ... »

(١) هنا الفصل في السحاب الأحمر بعنوان « الربيطة » كتبه الراقى عن صديق من خريجي جامعات أوروبا ، هو الدكتور المراوي ، وكان في صدر شبابه — كأكثر واردات أوروبا — زيفاً في الدين ، وزيفاً في الخلق ، وزيفاً في الرجولة ؛ على أنه الآن من أكثر المسلمين حية لدينه وحفاظاً على تراث قومه ؛ وله مقالات في الإسلام وفي الرد على بعض جهال المستشرقين تشفع له يوم الدين

« وهكذا الرجل أغواه الشيطان في السماء بشمرة فنسى الله حيناً ، ونفويه
الحب في الأرض بشمرة أخرى فينسى معها الأم أحياناً ! »

وتراه في الفصول الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ،
ويقنمها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل ، وليس هو إنسانية الإنسان ، وليس
هو كل ما في الحياة من لذة ومتاع ، في كلام يجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه :
الشيخ علي ، والشيخ أحمد ، والشيخ محمد عبده ؛ يحاورهم ويحاورونه ، فتستمتع
في هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه ، وإلى الصراع بين عقله وهواه .
إن الرافي بكبريائه وخلقه ودينه واعتداده بنفسه ، لم يُخلق للحب ! ولكنه
أحب ، فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام ، وصراعاً دائماً بين طبيعته التي هو
بها هو ، وفطرته التي هو بها إنسان . وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم في كل فصل
من فصول السحاب الأحمر

وفي كتاب السحاب الأحمر ، تقرأ رأي الرافي في القضاء والقدر ، وإنه
ليشرك برأيه ذلك مقدار ما فعل به الحب وما قلّ من إرادته . فتراه يؤمن بأن
الإنسان في دنياه ليس له كسبٌ ولا اختيار فيما يعمل ، ولكنه قضاء مقدر عليه ،
منذ الأزل لا طاقة له على الفكّ منه . وإنه على ذلك لموقن بأن لله حكمة فيما قضى
وقدر ، وإن دقت حكمته على الأفهام :

« ألا يا ماء البحر ، ما أنت على أرض من الملح ؛ فبماذا أصبحت زُعاعاً لا تحلو
ولا تُساغ ولا تُشرب ؟ إنك لست على أرض من الملح ولكنك يا ماء البحر
ذابت فيك الحكمة المِلْحَة ... ! »

قلت في الفصل السابق : إن رسائل الأحران عند أكثر قراء العربية هو شيء
من البيان المصنوع تكلفه كاتبه ليحاول به أن يستحدث فتناً في العربية لم يوفق

إلى تجويده ... لأنه بقية قصة لم تنشر معه ...
أما السحاب الأحمر فهو كتاب كامل . احذف منه فصلاً أو فصلين في أوله ،
وشيثاً من فضول القول في سائره ، تجد فناً في العربية لا يقدر عليه إلا الرافعي ،
فجرده من قصته أو انسبه إليها، فإنك واجد فيه أدباً يستحق الخلود، وبياناً يزهي
على البيان، وشعراً وحكمة ما زال الأدباء يدورون عليها حتى وجدوها في أدب الرافعي

في رسائل الأحزان أراد الرافعي أن تعرف صاحبتة من حاله ومن خبره ما أراد،
فأغراها بالترفع والدلال عليه ؛ وفي السحاب الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ
من أمرها وفرغت من أمره فما لها عنده إلا البغض والإهمال ، وما له عندها إلا اللفظة
على ما كان من أيامه . أفتراه في السحاب الأحمر قد بلغ ما أراد ؟

هيهات أن يخفى الهوى !

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللفظة ويوقظ الحنين ويؤرث
البغضاء ويشير الندم ؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه
أن يقول :

ويلي على متدلل ما تنقضي عني فنونه
كيف السُّكُوْ وفي فؤا دي لا تفارقني عيونه ؟ !

يرحمك الله يا صديقي !



أوراق الورد

« ... إنه ليس مني إلا ظلالها ، ولكنها ظلال حبة تروح وتجيء في ذاكرتي . وكل ما كان ومضى هو في هذه الظلال الحية كائن لا يفنى . وكما يرى الشاعر للملهم كلام الطبيعة بأسره مترجماً إلى لغة عينيه ، أصبحت أراها في هجرها طبيعة حسن فائن مترجمة بمحملتها إلى لغة فكري

« كان لها في نفسي مظهر الجمال ومعه حماقة الرجاء وحنونه ، ثم خضوعي لها خضوعاً لا يفنى ... فبدلني الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله ، ثم خضوعها لخيالي خضوعاً لا يضرها ...

« وما أريد من الحب إلا الفن ، فإن جاء من الهجر فن فهو الحب ...

« كلما ابتعدت في صدها خطوتين رجعت إلى صوابي خطوة

« لقد أصبحت أري ألين العطف في أقسى الهجر ، ولن أرضى بالأمر الذي ليس بالرضا ، ولن يحسن عندي مالا يحسن ، ولن أطلب الحب إلا في عصيان الحب . أريدها غصبي ، فهذا جمال يلائم طبيعتي الشديدة ، وحب يناسب كبريائي . ودع جرحي يترشش دماً ، فهذه لعمري قرة الجسم الذي ينبت ثمر العضل وشوك الخلب ، وما هي بقوة فيك إن لم تقو أول شيء على الألم ...

« أريدها لا تعرفني ولا أمرفها ، لا من شيء إلا لأنها تعرفني وأمرها ... تتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوتي . صمت ضائع كالصمت ولكن له في القلين حمل كلام طويل ... »
(الراجحي)



هدأت نائرة الراجحي هوناً ما ، وفاءت إليه نفسه ، واعتدلت مقادير الأشياء في عينيه ، وعاد إلى حالة بين الرضا والغضب ، وبين الحب والسلوان ؛ فاستراح إلى اليأس ... لولا أنارة من الحنين تنزع به إلى الماضي ، وبقية من الشوق واللففة على ما كان ؛ وفرغت أيامه من الحادثة لتمتليء من بعد الشعر والحكمة والبيان

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها ، والذكرى تغشاه في خلوته وتداعبه في أحلامه ، والأمانى التي بعثتها الكبرياء بدداً في أودية النسيان تتخايل له في شكول وألوان ، وخواطره من وراء ذلك تعمل ، ونفسه الشاعرة

تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرؤى والأحلام . وأتم نظم قصيدته
البارعة في « أوراق الورد » سنة ١٩٣١

أوراق الورد هو طائفة من الخواطر المنثورة في فلسفة الحب والجمال ، أنشأه
الرافعي ليصف حالة من حالاته ، ويثبت تاريخاً من تاريخه ، في فترة من العمر لم يكن
يرى لنفسه من قبلها تاريخاً ولا من بعد

ويقول الرافعي إنه جمع في أوراق الورد رسائلها ورسائله . أما رسائله فنعم
ولكن على باب من المجاز ، وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب ،
إلا رسالة واحدة وجُزأت من كتب وتفتاً من حديثها وحديثه

بلى ، إن في أوراق الورد طائفة من رسائله إليها ، ولكنها رسائل لم تذهب
إليها مع البريد ، بل هي من الرسائل التي كان يناجيها بها في خلوته ، ويتحدث
بها إلى نفسه ؛ أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى ، ويترسّل بها إلى طيفها
في جلوة الأحلام ، لإرسالتين أو ثلاثاً مما في أوراق الورد ... فلما أتم تأليفها وعقد
عقدتها ، بعث بها إليها في كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق !

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحى (فلانة) ، وليست كل رسائله
في الكتاب إليها ؛ فهناك الأخرى ، هناك صاحبة (حديث القمر) ، تلك
التي عرفها في ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة ، وهنا فلانة ...

هما اثنتان لا واحدة : تلك يستمدّ من لينها وسماحتها وذكرياتها السعيدة ،
معاني الحب التي تملأ النفس بأفراح الحياة ، وهذه يستوحىها معاني الكبرياء والصد
والقطيعة وذكريات الحب الذي أشرق في خواطره بالشعر وأفهم قلبه بالألم !

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته (فلانة) ، كان قلبه في أثنائها خالصاً لها ،
ولكن فكره كان يدور على معاني الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك ؛ فلما اجتمع
له ما أراد ، ضم أوراق الورد إلى أشواكه ، وأخرجها كتاباً للفن أولاً ثم لها
من بعد .

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذي يعشقها وما زال متياً في هواها ،
ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكر وعقل الأديب وحيلة الفنان
بلى ، إنه كان يحبها حباً لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها فكان (قلبه)
لها من دون النساء جميعاً ، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحى إليه
من هنا ومن هنالك ومما يستجد على خواطره من بعد في معاني الحب والبغض
والود والقطيعة

هو كتاب يصور نفسه وخواطره في الحب ؛ ثم يصورّ فنه وبيانه في لغة
الحب ؛ ثم ... ثم لا يصور شيئاً من بعد مما كان بينه وبين صاحبتة على وجهه
وحقيقته ، إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة
في البحث والاستقراء

فما رأيتَ من رسالة فيها الهفة والحنين ، وفيها التذلل والاستعطاف ، وفيها
تصنّع الغضب ودعوى الكبرياء ، وفيها المنى الحاملة لتواثب بين السطور في خفة
الفراشة الطائرة ؛ وما رأيتَ من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت ؛ فهو فصل يؤدي
أداءه في قصة هذا الحب العجيب

وما قرأتَ من رسالة تصف ما كان في خلوة نفس إلى نفس ، وتقص عليك
في لغة الماضي حديث قلب إلى قلب ، وتكشف لك عن سر الابتسامة ومعنى النظرة ،
وتتحدث إليك عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون ؛ فهو ذكرى من الماضي البعيد ،
كان حباً في القلب فصار حديثاً في الفكر ، ثم استتبع شيئاً

وما قرأتَ من قول ضروّق ، وبيان منمّق ، ومعنى يلد معنى ، وفكرة تستجرّ
فكرة ، وعبارة تتوكأ على عبارة ؛ فهو من أداء الفن وولادة الفكر

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة ، أو حادثة وذكرى ، أو فنٌّ من الفن ؛
ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الثلاثة في قرآن : ففيها قلب ينبض ،
وذكرى تعود ، وبيان مصنوع

فإذا أنت عرفت هذه الثلاثة ، عرفت الكتاب ، وعرفت صاحبه ،
وخرجت منه بشيء

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة في الأدب يتحدث فيها عن تاريخ رسائل الحب
في العربية بأسلوب هو أسلوب الرافعي ، وإحاطة هي إحاطته ، وسعة اطلاع لا تعرفها
لغيره ؛ وهذه المقدمة وحدها هي باب في الأدب العربي لم ينسج على منواله ولم يكتب
مثله ، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذي نهجه الرافعي العالم المؤرخ في كتابه
« تاريخ آداب العرب » فكان به أول من كتب في تاريخ الأدب وآخر من كتب...
وتأتي بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل ، وفيها سبب تسمية الكتاب ،
وهو شيء مما كان بينه وبين صاحبتة . يقول إنه كان في مجلسها يوماً ومعها وردة ؛
فأخذت تحذره عن الحب وعمر الحب ، وعن الورد وعمر الورد ، وكأنها تقول له :
احذر أن تجعل حظك من الورد أكثر من أن تستنشيها على بُعد من دون لمسة
البنان ، واحذر في الحب ... قال : « ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت ورددتها
إلى عمروة صاحبها ، فقال لها : وضعيتها رقيقة نادية في صدري ، ولكن على معان
في القلب كأشواكها ... فاستضحكت وقالت : فإذا كتبت يوماً معاني الأشواك
فسمها أوراق الورد ... وكذلك سماها »

ويعرض في هذه المقدمة يتحدث عن حبه ، وآلامه في الحب ، ورأيه في الحب ،
وشيء مما كان بينه وبينها ؛ ثم يتحدث عن نهجه في هذه الرسائل ، وما أراد بها ،
وما أوحاها إليه ؛ في أسلوب كله حنين ، وكله شوق وألم .
ثم تأتي بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل :
فيها حنين العاشق المهجور ، وفيها أمنية التمني ، وفيها ذكريات السالى ، وفيها
فن الأديب وشعر الشاعر ؛ وفيها من رسائلها ومن حديثها ...

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب في رسائل لم يجد شيئاً ، ومن أراد

رسائل وجوابها في معنى خاص لم يجد شيئاً؛ ومن أرادته تسليّة وإزجاء للفراغ لم يجد شيئاً؛ ومن أرادته نموذجاً من الرسائل يحتذيه في رسائله إلى من يحب لم يجد شيئاً؛ ومن أرادته قصة قلب ينبض بمعانيه على حاله في الرضى والغضب، ويتحدث بأمانه على حاله في الحب والسلوان — وجد كل شيء .

وهو في الفن فنٌّ وحده، لا تجد في بيانه ومعانيه ضرباً له مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء في معاني الحب؛ على أنه بأسلوبه العنيف وبيانه العالي وفكرته السامية في الحب، لا يعرف قراءه في العربية. وكم قارئ استهواه عنوان الكتاب وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة، فما هو إلا أن يمضي فيه إلى صفحات قليلة حتى تسلمه يمينه إلى يساره إلى الزاوية المهملة من مكتبته، ثم لا يعود إليه... وكم قارئ كان لا يعرف الراقى الشاعر الثائر العنيف في حبه وبفضه وكبريائه، فلما قرأ أوراق الورد عرفه فأجبه فاستخلصه لنفسه فما عرفه في الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد .

وكم وكم... ولكن أوراق الورد ما يزال مجهولاً عند أكثر قراء العربية وإن كان في مكباتهم، لأن القارئ الذي يلهه أوراق الورد ما زال يتعلم في المدرسة كيف يقرأ ليستفيد ويضمّ فكراً إلى فكره لا ليتسلى ويهرب من فكره! لأن العربية ليس لها قراء...!

ليت شعري أفي العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معانيها في قصيدة؟ ابحثوا عن جمهور هذا الشاعر وقرائه يوم تسمعون قصيده...

أرأيت إلى المنجم الذي يمتد في الأرض ويتغلغل بعروق الذهب؟ إنه كنز، ولكن منذاً يصبر على المعاناة في استخراجه والبلوغ إليه إلا أن يكون صاحب أيدٍ وقوة؟ إنه كنز يطلبه الجميع ولكنك لن تجد في الجميع من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض إلا الرجل الواحد المحظوظ الذي يكون معه الصبر .

إن أوراق الورد مَنْجَم من المعاني الذهبية ، لو عرفه المتأدبون من شباننا لوضعوا أيديهم على أئمن كنز في العربية في معاني الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة في الشعر والبيان .

وكان الرافعي — رحمه الله — يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج في أدب الإنشاء ، ويباهي ويفتخر ؛ وما أحسبه تعزّي عن صاحبتة بقليل إذ تعزّي بما لقي من النجاح والتوفيق في إنشاء أوراق الورد ؛ وكما تجد الأم سلوتها في ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذي طواه الموت ، وجد الرافعي العزاء في أطفال معانيه عن مطلقته العنيدة ... لقد فارقها ولكنه احتواها في كتاب !

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلف بين يديها بضعة منه ، ولكنها تجد العزاء عنه بشيء منه وإن قلبها ليخفق بذكره في عيني هذا الحبيب الصغير . وكذلك لم ينس الرافعي ولكنه وجد السلوان ... لقد أفلتت من يده ولكنها خلفت ذكرها معه ، ذكرى حية ناطقة تمثل معاني وكلمات في كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب !

رحمه الله ! لقد مات ولكن قلبه ما يزال حياً ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه في قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله ...
رحمه الله !

